

يا أذلاء :

إلى هذا الحد تعشقون جلادكم هتلر !؟

ناهض منير الرئيس

بينما كانت الصواريخ الإسرائيلية يوم الجمعة الماضي تتساقط من الأرض والجو وكانت الطائرات الحربية تجوب سماوات قطاع غزة ليلا ونهارا ، توعده نائب وزير الدفاع الإسرائيلي المليون ونصف المليون فلسطيني في قطاع غزة بـ ( محرقة ) كبيرة على حد قوله .

وكلمة ( المحرقة ) هي الاصطلاح الذي نحتته الحركة الصهيونية للتعبير عن الإجراءات التي اتخذها هتلر لاضطهاد اليهود في ألمانيا . وقد أدخلت الصهيونية هذا الاصطلاح في الثقافة الغربية ليتذكر الأوروبيون دائما عقدة الذنب تجاه أولئك المضطهدين ( وساعد على ذلك أن الأوروبيين كانوا . ومازالوا . يكرهون اليهود فعلا ، وهذا سهل عليهم الإحساس بالذنب ) .

فمن أغرب الأمور والحال كذلك حديث الوجه النحاسي متان فلنائي عن محرقة ينوي أن يصنعها للفلسطينيين في قطاع غزة ! وقد صنعها فعلا بما يفوق الخيال ! فالموت الذي وزعوه على الفلسطينيين كبارهم وصغارهم وأطفالهم كان موتا بالجملة دون لا يستثنى أحدا . ولا أتخيل أن الألمان كانت لديهم التكنولوجيا التي خص الأمريكيون بها إسرائيل ، والتي تحول الطفل إلى فتاة يصعب التعرف عليها . وقد كفى الفلسطينيين محرقة إخراجهم من بلادهم عام ١٩٤٨ . وكفاهم مذابح عام ١٩٥٦ وكفاهم احتلال ١٩٦٧ وكفاهم ترويعا وتجويعا على مدار الزمان حتى هذه الأيام وقد ظل الصهاينة يتحدثون عن

محرقة هتلر وظلوا يقتادون رؤساء الدول إلى متحف الهولوكوست في القدس بإلحاح وتكرار حتى فوجئنا بهذا التبدل في الأدوار وإذا بنائب وزير الدفاع يأخذ مكان هتلر ويصنع محرقة كما صنع هتلر من قبل ويحلم بوضع الفلسطينيين في مكان اليهود . وهكذا يصبح هذا التبدل في الأدوار بديلا لردة الفعل الطبيعية التي يفترض أن توجه الضحية للانتقام من الجلاد أو من قبر الجلاد لا أن تتقمص ذلك الجلاد وتوجه انتقامها إلى ضحية بريئة . أليس الذي صنع محرقة اليهود كما تقولون هو هتلر .. فذهبوا إلى قبره لأخذ تاركهم إن كنتم فاعلين .

ولكن المشكلة ليست مشكلة الثأر كما يبدو . وإنما هي مشكلة عشق الجلاد والتشبه به . وتدانا تجربتنا المباشرة . نحن الفلسطينيين . على أن الإسرائيليين يعشقون مؤسس النازية هتلر فهم يقتفون خطاه . وهناك العديد من أوجه الشبه بين طريقة تفكيرهم وتفكيره وأسلوب تعبيرهم وتعبيره وأفعالهم وأفعاله بل وبين عواطفهم وعواطفه . ونحن لسنا بحاجة للاستدلال على ذلك بالرجوع إلى تاريخ الصراع بيننا وبينهم ، فما هو فلنأني غراب الحرب في القرن الحادي والعشرين يقولها على رؤوس الأشهاد : المحرقة للفلسطينيين ! الموت للفلسطينيين ! ويقول ذلك وهو يعتقد أنه يوزع على الفلسطينيين أقدارهم . ويعتقد الصهاينة عموما أن جنسهم أرفع الأجناس وأن جميع خلق الله يحسدونهم على ما لديهم من تفوق ولذلك يكيدون لهم كيادا .

كيف يحدث أن يعشق بعض الضحايا جلادهم ويقلدوه في جبروته وطغيانه ؟ إن ذلك يحدث من خلال تشبع الضحية وامتلاء روعها بقوة الجلاد وبطش الجلاد ، حتى تعتقد الضحية أن تلك القوة المحسوسة هي صانعة القدر فتأخذ

في إضمار الإعجاب الذي يتطور إلى نوع من العبادة لها . وعلى مدى التاريخ عبد الصهاينة المال وقوته المحسوسة ولكنهم أضافوا مع تلك العبادة حديثا عبادة القوة الحربية والآلة العسكرية حتى قال مناحم بيجن إن ظهور المقاتل اليهودي هو أهم علامة فارقة في التطور التاريخي الحديث . وكان بذلك يكرر أمثلة هتلر وإعجابه بالقوة الألمانية التي حسب أنها ستصنع تاريخ العالم الحديث وستوزع الأقدار على الأجناس !

ومعركة الفلسطينيين معهم اليوم هي في بعض معانيها المعركة بين الإيمان بالله الواحد الأحد صانع القدر والمهيمن على الأحداث في مجملها وبين الإيمان بأن القوة الثنائية : قوة المال وقوة السلاح هي صانعة القدر . وهم عندما يقتلون طفلا أو يهدمون مبنى أو يجرفون شجرة يظنون أنهم ينظرون إلى عجائب قدرة إلههم : القوة الملموسة المحسوسة ، وليس إلى فتنة العقل وضلال الروح وسيطرة الظلم والعسف . فيا لهم من مفتونين .. لن يغني عنهم كسب معاركهم العابرة عن المصير الأسود الذي يحيق بجميع المشركين .

وجريا على المثل القائل : إذا وقع القدر عمي البصر فقد عمي الغراب فلنائي وأمثاله عن أبسط أشكال البداهة : فلم يخطر ببالهم أن يتبينوا على ضوء منطقهم نفسه أن ( المحرقة ) النازية كانت المقدمة الأولى لولادة إسرائيل وأن محرقة الفلسطينيين إن وقعت ستكون لها تداعياتها .

### منطق والد الشهيد ومنطق المغترب

هو صديق قديم .. هاتفني من الخارج ليطمئن على أحوالنا في هذه الموجة من إرهاب الدولة . وبعد السلام والاطمئنان جعل يحدثني بمنطق الريح

والخسارة وميزان القوى المفقود . ولم يكن قد مر أكثر من سويعات قليلة على عودتي من خيمة عزاء الأخ خليل الحية الذي فقد ولده الشاب حمزة وسبق أن فقد بضعة من أقاربه وذويه في غارة كانت تستهدفه شخصيا . وسمعتة يقول : نحن ندفع الثمن عن إيمان بطريقنا .

قال الصديق الذي يهاتفني من الخارج :

. يا أخي ما النتيجة التي نتحصل عليها في حين أن الضرر الذي يصيبنا أضعاف أضعاف الذي يصيبهم وصواريخهم أقوى من صواريخنا والخسائر التي نتكبتها أضعاف أضعاف التي يتكبدونها ؟ يا أخي ما هذه الدروشة ودفع الشباب للموت باسم الشهادة ؟ أضف إلى ذلك أنهم أقوى منا في الدعاية بحيث أنهم يصورون أنفسهم هم الضحايا ويصوروننا نحن الضحايا الحقيقيين في صورة الجلادين ؟

قلت له :

. في نابلس وطولكرم وجنين يقتلون الناس دون أن يطلقوا أية صواريخ . وقد تخطر بالبال تماما مسألة ميزان القوى ولكنني أريد أن تفهم الحالة الذهنية للناس هنا بعد أن تغربت في غيابك عنهم .

عندما كان الاحتلال يصادر أراضي الناس بالقوة ويقوم فوقها مستعمرة ، فقد كان الحاكم الإسرائيلي يستدعي الفلاحين فرادى ويعرض عليهم شراء الأرض منهم علما أن معظمهم لم يكونوا مالكين بموجب الطابو ولكن واضعي يد وضعا هادئا غير مشوب بالقوة ومستصلحين لأراض موات . وكان يواصل استدعاءهم مرات عديدة ويحاول إغراءهم وتحطيم إرادتهم بمختلف الوسائل وباستخدام المنطق الحسابي . وكان الإغراء بالمال أول حيله ( نحن ندفع نقدا

. وندفع الثمن الذي يرضيك والذي لا يمكن لأحد أن يدفعه لك . وتبقى  
المعاملة سرا بيننا ) ولكن الفلاح يرد عليه ( لا أريد البيع ) وهنا يتغير المنطق  
( هذا خطأ منك ويدل على أنك لا تعرف مصلحتك . فنحن حكومة . وقد  
أخذنا الأرض دون مشورة أحد . وستبقى الأرض أرضنا للأبد . وماذا تستفيد  
أنت من كلمة " بديش " ؟ وغيرك كان أعدل منك لأنه وافق وأخذ " قرشين  
ينفعوه " ) ويبقى الفلاح مصرا فتتغير اللهجة مرة أخرى : ( فكر مرة ثانية وأنا  
سأبعث المخابرات لتستدعيك لي ونتحدث من جديد ) . فيجيبه الفلسطيني ( أنا  
أنا فكرت وخلصت ) وعن ذلك يقول الحاكم : ( يا حمار ! " يعني الأرض  
رايحة رايحة " غصبا عنك وبخاطرك فلماذا لا تستفيد ؟ وما الفرق بين أن  
تروح منك الأرض بحكم الأرض الواقع وبأمر الجيش وبين ان توقع توقيعا  
بسيطا على هذه الورقة وتضع في جيبك قرشين لأولادك ؟ ) فكان الفلاح يرد  
( أخذتموها غصبا . ولا حيلة لي في ذلك . ولكنني لن أتنازل أبدا برغبتي  
واختياري ) .

قلت لصاحبي : هل فهمت الآن أن صاحبك ما زال ذلك الفلاح ؟ !

### افهمي يا إسرائيل الفرق

من الأراضي التي قام الاحتلال بتجريف أشجارها وتركها قاعا صفتها قطعة  
أرض كانت مزروعة برتقالا وجرفوت وزيتونا ونخيلًا وعنبا وتقع إلى الشرق من  
الأرض التي بنى عليها الاحتلال مستعمرة نيتساريم . وكنت قد استعوضت  
الغني الحميد في كل ما فيها . وعندما انقلعت المستعمرة وتحررت أرضها  
عاودنا العمل لإعمار الأرض . وإذا بالفلاح العجوز الطيب يأخذني يوما من

يدي ليطلعني على مفاجأة حلوة ! وذلك أن كثيرا من أشجار الزيتون التي جرفتها الآلات الضخمة كانت مطمورة تحت الأرض ولم تمت . ولم يكن ينقصها إلا العناية بها من جديد !

ساورني الإحساس بأن هذا الزيتون الذي كان مطمورا ولكن فيه سر الحياة هو الشعب العربي الفلسطيني المرابط . أما المستعمرة التي لم يعد لها وجود في المكان فذلك مصير الاحتلال آجلا أو عاجلا . أليس السر في تلك الأعجوبة أنه النبتة الصحيحة التي زرعت في مكانها الصحيح ؟

### اضحك مع الفلسطينيين

عجوز من قدامى الفلسطينيين المهاجرين إلى الولايات المتحدة في شبابه مكث في نيويورك خمسين سنة حتى إنه حصل على الجنسية من زمان . بعث مؤخرا إلى ولده الذي يدرس في باريس رسالة يقول فيها : " ولدي محمد تمنيت في هذه الأيام أن تكون عندي لأنني اشتفيت أن أزرع في حديقة منزلنا بعض الحشائش والورود في حين أنني لا أقوى على ذلك بسبب الروماتزم . وقد أحاول أن أبدأ بالتدريج إذا تحسنت قليلا " .

فوصله رد من ابنه يقول فيه : " انتظرنني ولا تفعل شيئا يا أبي لأنني خبأت الشيء في الحديقة " .

وفي اليوم التالي وصلت دورية من رجال المباحث الأمريكية ومعهم أدواتهم ولم يتركوا شبرا في الحديقة إلا نبشوه ولم يجدوا أي شيء فانقلعوا مرتابين . ثم وصلت من محمد رسالة إلى أبيه يقول فيها : " أظن أنك تستطيع أن تزرع ورودك الآن دون أدنى تعب ! أليس كذلك ؟ "

